البيئة الصحراوية وجماليات المكان
في الشعر الجزائري الحديث والمعاصر

أ.صلاح الدين باوية. جامعة جيجل /الجزائر.

مدخل:

للمكان روعته وقداسته وسحره، ومن ثمة حضوره المكثف في الأدب العربي،وفي غيره من الآداب الأخرى قديما وحديثا،ذلك أن الإنسان مرتبط بالمكان أشد ما يكون الارتباط (المكان هنا هو كل شيء)(1)،هو مرتع الطفولة والصبا،وملتقى الحب والأحباب،وموطن الأهل والأجداد،ومجمع الخلان و، وحافظ الذكريات ،ومسرح العادات والتقاليد والثقافات،

فبلا شك أن العلاقة بين الإنسان والمكان هي علاقة حميمة منذ القدم ،ولذا(يرتبط البشر ارتباطا وثيقا وحيويا بالمكان الذي يعيشون فيه)(2)،من حيث أن هذا (المكان بوصفه نظاما اجتماعيا عاطفيا ينتظم العلاقات الإنسانية في كل هذه المجالات)(3) ،إذن فسلطة المكان مهيمنة عبر التاريخ البشري وربما أكثر من سلطة الزمان (فالتفاعل الذي يحدث بين البشر والمكان لا يحدث بينهم وبين الزمان)(4).

ولذا فإننا نعثر على حضور المكان منذ الجاهلية في الأدب العربي، فهذا الشاعر امرؤ القيس بن حجر

- من حقب خلت- يستوقف أصحابه ليبكي ويستبكي ديار حبيبته، وتستحضر ذاكرته الأماكن التي كان يرتادها معها ، حيث يقول في مطلع معلقته على **بحر الطويل:**

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرى حَبيبٍ ومَنْزِلِ بسقْطِ اللّوى بينَ **الدَّخُولِ فَحَومَلِ**

فتوضحَ فالمقْراةَ لَـــمْ يعْفُ رسْمُها لِمَا نسَجتْهُ مِنْ جَنُوبٍ وشَمْأَلِ (5)

ففي هاتين البيتين يذكر امرؤ القيس خمسة أماكن هي (منزل،الدخول، حومل،توضح،المقراة)، وهي كلها مواضع كان الشاعر يمرح فيها وله فيها ذكريات وأيام خلت جمعته بمحبوبة قلبه .

فالشاعر هنا يستدعي ويستحضر الذكريات البعيدة من خلال المكان و(حينما نستدعي الذكريات البعيدة فإننا نضفي عليها قيمة ما) (6).

ولو رجعنا إلى ماضي التاريخ، وتاريخ العمران بالذات لاكتشفنا أن هذه الأمكنة المذكورة هي موطن الشاعر وأين قضى حياته، وهذه الأماكن هي موضع ما بين إمرة وأسود العين على طريق البصرة إلى مكة من جهة اليمامة (7).

وليس امرئ القيس من وظف المكان فحسب بذكره مراتع حبيبته، بل نجد العديد من الشعراء الآخرين من فعلوا ذلك، فهذا على سبيل المثال "زهير بن أبي سلمى" الذي يقول مستفهما على **بحر الطويل** :

أمِنْ أمِّ أُوفى دِمْنَةٌ لَمْ تُكَلَّمِ ... بُحومَانَةَ الـدرَّاجِ فَالْمُتَثَلَّمِ

ودَارٌ لَهَا بالرَّقْمَتينِ كَأَنَّهَـا ... مَراجيعُ وشْمٍ في نَواشِرَ معْصَمِ

فزهير بن أبي سلمى في هذين البيتين يذكر عدة أماكن هي : دمنة ، حومانة، الدراج،المتثلم : موضعان والرقمتان : حرتان إحداهما قريبة من البصرة،والأخرى قريبة من المدينة (8).

ومن جميع ما سقناه ، نستنتج (أن مأثور الشعر العربي من امرئ القيس إلى اليوم طافــح بتلك الإشارات إلى تلك الأمكنة التي ارتبط بها الشاعر لسبب من الأسباب فسحر المكان له وقعه الخاص على الرجل والمرأة)(9).

وبما أن للبيئة الصحراوية الجزائرية على وجه الخصوص،جمالها الأخاذ،وطبيعتها الساحرة،ومناظرها الرائعة، فقد حباها الله – عز وجل– من الجمال والسحر الحلال ما جعلها تفتن وتستهوي قلوب العباد، وتستميل عقولهم،لا سيما

العابرين من السياح، فكم من سائح عبر التاريخ فتنته الجزائر عامة وبيئتها الصحراوية بخاصة ،فإذا به يحط الرحال فيطيب له المكوث والإقامة بها.

ومن هذا كله وجب علينا أن نتساءل كيف تناول الشعراء الجزائريون جماليات هذه البيئة الصحراوية الجزائرية ؟وهل نجد لهذه البيئة حضورا ومساحة في إنتاجهم الشعري؟وهل أولوها الاهتمام الذي يليق بمستوى جمالياتها؟،لا سيما وأن من الباحثين النقاد من يرى أن الشعراء الجزائريين لم يلتفتوا قط إلى هذه البيئة و لم يولوها أدنى اهتمام،فهذا الباحث - محمد الطمار- في كتابه — تاريخ الأدب الجزائري — يقول:(وطبيعة الجزائر فتانة إلى أقصى حد بشلالاتها وغاباتها ،ومياهها ،وجبالها، وسهولها ،ومروجها ،وصحرائها.ولو التفتوا إليها لأتوا بما يضاهي شعر المشارقة والأندلسيين في هذا المضمار)(10).

ويبدو لنا حسب - رأينا المتواضع- أن الشعر الجزائري تناول جماليات البيئة الصحراوية من خلال محطات منها:جماليات الصحراء،البادية، الواحة، النخيل، وبعض أسماء الأمكنة الخاصة...

وهذا ما سنحاول التعرف عليه.

1. جماليات الصحراء:

إذا بحثنا في الشعر الجزائري في سؤال كيف تناول الشعراء الجزائريون جماليات الصحراء ؟ نجد العديد منهم ألهمتهم طبيعتها، فوصفوا جمالياتها مأخوذين بمناظرها وجاذبيتها،(وأمام الصحراء وقف العديد من الشعراء الجزائريين طويلا ،وقفوا مأخوذين بجلالها المهيب ،مفتونين بسكونها العميق ،مبهورين بامتدادها المنبسط الذي يضيع في مداه النظر ...)(11).

ويضيف الباحث الجزائري-محمد ناصر- مبرزا موقف الشعراء الجزائريين وخاصة:- أبناء الصحراء- الذين نشئوا وترعرعوا فيها قائلا:(وقفوا جميعا موقف خشوع وعبادة،والتفتوا إليها لفتة وله وحب ،ولكنهم اختلفوا بعد ذلك في التعبير عن هذه الأحاسيس، بين النجاح والإخفاق ،وتفاوتوا في ذلك بين من حاول النفاذ إلى تصوير مشاعره وأحاسيسه ،وبين من اكتفى منذ البداية بالوصف الخارجي والتعبير المباشر)(12).

فهذا مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية وهو – ابن الصحراء – الذي افتتن بطبيعتها أيما افتتان ، لم يفته في قصيدته الثورية أن يصف وينوه بجماليات الصحراء إبان الثورة التحريرية سنة 1957 ، حيث يقول على بحر الوافر :

في صَحْرائِنَا جَنَّاتُ عَـدْنٍ بِهَا تنْسَابُ ثَرْوَتُنا انْسِيابَـا
وفي صَحْـرائِنَا ظِلٌّ ظَليـلٌ تَفُورُ بِهَا نَواعِرُهَا حُبَابَـا
وفوقَ سَمَائِـهَا ، قَمَرٌ مُنِيرٌ نُطَارِحُهُ الْأحَاديثَ العِـذَابَا
وتَحْتَ خِيَامِهِا انْبَجَسَتْ عُيونٌ لَهَا هَارُوتُ قَدْ سَجَدَ احْتِسَابَا
عَشِقْنَا عِنْدَ أسْمَرِهَا،وسَـم فُنونَ السِّحْرِ،والتِّبـرِ الْمُذَابَا
يُرَاقِصُ رَمْلُهَا الذَهَبِيُّ شَمْسًا تُودِّعُـهُ ،فَيمْنعُـهَا الذَّهَابَا
وبيْنَ غزَالتينِ جَرى سِـبَاقٌ وكَانَ الثَّأْرُ بينَهُمَا طِـلاَبَا(13).

فمفدي زكريا وهو في خضم الثورة وتحت لهيب النيران، لم ينس أن يستعرض جماليات الصحراء،فما الظل الظليل،والقمر المنير،والخيام،والفتاة العذبة السمراء، والرمل الذهبي الذي يراقص الشمس،وسباق الغزلان... كل هذه الصور ما هي إلا صور حية لجماليات الصحراء الجزائرية.

ويذهب الباحث -محمد ناصر- إلى أن مفدي زكريا في النص السابق (يتناول مشاهد الصحراء تناولا استعراضيا سريعا لم يتخل فيه عما عرف به التناول التقليدي من وقوف عند السطح من المناظر الموصوفة،ولعل رغبة الشاعر في أن

يتناول بريشته كل ما تمتاز به هذه البيئة من خصائص الجلال والجمال،فوتت على الشاعر فرصة التعمق إلى بواطن الأشياء واستنباطها استنباطا ذاتيا،لقد حاول أن يشمل بنظرة واحدة أجمل وأروع ما في الصحراء من خصائص ،فحدثنا عن واحاتها الظليلة ومائها العذب،وقمرها المنير،وعيون بناتها الساحرات،وشمسها الفاتنة وقت الغروب،ورملها الذهبي الحريري،ونخلها المثقل بالرطب الجني،وسحر نغمة راعيها،ووداعة نفسه إلى آخر هذه الصور المتلاحقة بسرعة.)(**14**).

وإن يكن ما ذهب ،- محمد ناصر- فيه الكثير من الصحة إلا أننا نقول إن مفدي زكريا هنا كان تحت وطأة الثورة التحريرية ولذا فقد أفرد للصحراء لوحة فقط ضمن قصيدته الثورية،ولم يخصها بقصيدة كاملة تناول فيها جمالياتها بهدوء وروية،لاسيما أن مفدي زكريا هو ابن -وادي ميزاب- ومن ثمة ابن الصحراء الجزائرية وهو أدرى بمواطن سحرها وجمالها،فقد سبر أغوارها طفلا وشابا ،حيث ترعرع فيها،بل نجده يهيم حبا بطبيعة الجزائر شمالها وجنوبها،شرقها وغربها،حيث نجد حديثه عن الصحراء في الكثير من أشعاره فحبها يمتزج بدمائه،ويسري في عروقه ولعل الباحث- محمد ناصر- نفسه يوافقني الرأي حيث يقول:(أحسب أن مفدي زكريا من أبرز الشعراء الجزائريين اهتماما بوصف الطبيعة الجزائرية ،ومن أكثرهم افتتانا بمفاتنها ،فهو يمتاز بقصائده العديدة التي يتغنى فيها بسحر البلاد الجزائرية ،ذو خبرة واطلاع على مواطن الجمال والسحر بها شمالا وجنوبا ، غربها وشرقها، وليس أدل على ما نقول من إلياذته الشهيرة)(**15**).

ففي إلياذة الجزائر، لم ينس مفدي زكريا التغني بجماليات الصحراء ،حيث يقول على **بحر المتقارب** :

ألاَ... مَا لِهَذَا ٱلحِسَابِ...ومَالي   **وصَحْرَاؤُنـــَا** نَبْعُ هَذَا الجَمَالِ

هُنا مَهْبِطُ ٱلوَحْيِ لِلْكَـــائِنَاتِ   حِيَالَ **النَّـــخيلِ** وبينَ **الرِّمَالِ**

تُبَادِلُـــنا **الشَّمْسُ** إشْـــعَاعَهَا   ويُلْهِمُنَا الصَّفْوَ، نـــُورُ **الْهِلاَلِ**

وَنَغْدُو فَنَسْبِقُ أَحْلاَمَنَـــا وَنَهْزَأُ مِنْ وَثَبَاتِ الْغَزَالِ
وجَنَّبَنَا الْـغَدْرَ مَـاءُ الْغَدِيرِ وحَذَّرَنَا الظِّـلُّ نَهْجَ الضَّلاَلِ
وعَوَّدَنَا الصِّدْقَ..رَاعِي الْمَوَاشِي وعَلَّمَنَا الصَّبْرَ..صَبْرُ الْجِمَالِ(16).

هذه هي إذن صور الصحراء عند شاعر الثورة – مفدي زكريا – فهي نبع الجمال،ومهبط الوحي ومهد الرسالات،ونور الهدى،ومصب الكمال ، وصرح الشموخ، وعرش الجلال، وموطن العبقريات، والمعجزات، والإنسان الصحراوي يستلهم صفاء سريرته من صفاء نور الهلال،ويجتنب الغدر من جراء شربه لماء الغدير ويحذر الضلال لأن نفسه قد تشربت الإيمان،وطبيعته تتعود الصدق واستقامة الأخلاق من خلال صدق راعي المواشي ،والتحلي بالصبر الذي يألفه من جراء صبر الجمال ،هذه المزايا كلها هي من جماليات الصحراء عند مفدي زكريا والتي بلغت مرتبة الجلال والعظمة والقداسة .

وإذا انتقلنا إلى شاعر جزائري آخر غير بعيد عن –وادي ميزاب- نجد –ابن القرارة- "صالح خرفي" ففي سنة1960 يحاول أن يرسم لنا صورة عن جماليات الصحراء الجزائرية، رادًّا في الآن نفسه على المتآمرين والمتكالبين على خيراتها، حيث يقول على بحر الكامل:

يَا مَنْ عَلَى الصَّحْرَاءِ سَالَ لُعَابُهُمْ كَمْ مُوردٍ فيهَا سَلَوُا هَلْ أَصْدَرَا ؟
أَقْسَمْتُ بِالرَّمْضَاءِ فيهَا بِالرِّيَاحِ الهُوجِ تَـنْتَعِلُ الْجَدِيبَ الْمُقْفِرَا
بِالنَّاقَةِ الوجْنَاءِ فيهَا لَـمْ تَزَلْ عَرَبِيَّةَ الخُطُواتِ،شَـامِخَةَ الذُّرَا
أَقْسَمْتُ بِالْحَادِي وبِالفُصْحَى التِي نَاجَى هِا اللَّيلَ الْجَمِيلَ الْمُقْمِرَا
بِالْخِيمَةِ السُّودَاءِ، بِـاللَّيْلِ الأنِيسِ بِنَارِهَا، مَاانْـفَكَ طَائِي الْـقِرَى
بِالنَّفْطِ فِي الصَّحْرَا عَشِقْتُ سَوَادَهُ الدَّاجِي،وعِفْتُ به النُّضَارَ الأَصْفَرَا
بِالذَّرةِ الرَّعْنَـاءِ، أقْـعُدُ رَاجِلاً إِشْعَاعَهَا الْمُودِي،وأَعْمَى مُبْصِرَا

أَقْسَمْتُ بِالصَّحْرَاءِ مَهْدًا لِانْبِثَاقِ الْوحْيِ نَقَّاهَا حِرَاءُ وطَـــهَّـــرَا (17).

فما كل هذا إلا صورة حية من جماليات الصحراء الجزائرية،من هنا فإننا نجد عند الشاعر- صالح خرفي- هذه الصورة الصحراوية القديمة في قصيدته هذه وهي صور موفقة، وناجحة، لأننا نخالها منسجمة انسجاما موفقا مع طبيعة الموضوع،معبرة عن الحالة الشعورية النفسية التي يشعر بها الشاعر موحية بالفكرة التي يريد إبلاغها والتعبير عنها وهي تبيان أصالة الصحراء الجزائرية وارتباط شمالها بجنوبها(18).

فالصحراء إذن مهد السحر والجمال ومرتع الشعر والخيال ،قد تغنى بها وتناولها صالح خرفي من جانب الثورة لا من جانب الفن كما فعل زميله مفدي زكريا ،وقد استعمل الجزالة وفخامة اللفظ الذي يتناسب مع الثورة(19).

وإذا حاولنا الولوج إلى العوالم الفنية لقصيدة الشاعر"صالح خرفي"هذه وخاصةلغتها الشعرية، فمن الوهلة الأولى، وبدون جهد تواجهنا صعوبة ألفاظها وخشونتها،وهذا ربما يدل من ناحية تأثر الشاعر بالشعر الجاهلي خاصة،ومن ناحية أخرى طبيعة الموضوع الثوري الذي يتناوله،والذي يتطلب ألفاظا خشنة انفجارية،ومن الوهلةالأولى (فإن صورة الإيراد والإصدارالى الماء، والرمضاء المحرقة، والرياح الهوجاء، والناقة الوجناء والحادي الذي يناجي القمر بلغة فصيحة،والخيمة السوداء، والليل الأنيس،والنار المتقدة ليراها الأضياف من بعيد ،وغيرها من الرفات الخيالية ،كلها صور مستمدة من البيئة الصحراوية)(20).

وإذا انتقلنا إلى الشاعر- محمد الأخضر السائحي- ابن العلية بالقرب من تقرت ،فهو أيضا من الشعراء الذين تعبدوا في محراب الصحراء،فلنستمع إليه وهو يتبتل أمامها في خشوع،متسائلا عن كنهها واصفا مواطن جمالها ،حيث يقول مندهشا على بحر الخفيف :

كُثُبٌ أنْتِ ؟أم سَنًا وضِيَاءُ ؟ ورِمَالٌ ؟أمْ فِـــتْنَـــةٌ ورُوَاءُ ؟

وسُكُونٌ مُخَيِّمٌ ، ووجُومٌ أم غِـــنَاءٌ مُـــرَجَّـــعٌ وحُدَاءُ ؟

وبِســـاط مُمَهَّدٌ مِنْ حَرِيرٍ؟ أمْ هِضَابٌ عَلى الثَّرى شَـــمَّاءُ؟

لَسْتُ أدْري أأنْتِ أرْضٌ دَحَاهَا اللهُ أمْ أنْتِ يَا رِمَالُ سَـــمَـــاءُ؟

اْلجَمَالُ اْلبَديعُ والسِّحْرُ والرَّوعَةُ والطُّهْرُ والسَّنَا والصَّفَاءُ

هَا هُنَا كُلُّهَا بَدَتْ في رِمَالٍ وهِضَابٍ مَاجَتْ بِهَا اْلبَيدَاءُ(21)

كل هذه التساؤلات التي وردت في مطلع القصيدة، من خلالها (يبدو– السائحي– معجبا شديد الإعجاب بجمال الصحراء، المتمثل في هذا الامتداد الرملي الحريري الذي لا ينتهي عنده النظر إلى حد،مما جعل بصره مفتونا مقيدا بهذه الفتنة،وفي هذا السكون السحري الذي تحول في سمعه إلى غناء وحداء(22)،كيف لا و السائحي ابن الصحراء وهو الشاعر الرومانسي الحساس الذي طبع شعره بميزة الرقة والعذوبة،وصفاء العبارة إلى جانب لغة الهمس التي لا تفارقه،و السائحي هنا نحسبه قد ذهل فعجز أمام جلال وجمال وسحر الصحراء فلم يوف حقها من وصف لجمالياتها،وما قادنا إلى هذا الاستنباط التساؤلات العديدة التي ساقها مستفهما عن كنه الصحراء في بداية قصيدته ، حيث بلغت " تسعة" تساؤلات في الأبيات الأربعة الأولى،وكأنه بهذه التساؤلات يجهل كنه جماليات الصحراء، (فلم يجد مخرجا لانبهاره ذاك سوى هذه الاستفهامات المتلاحقة التي أراد أن يعبر من خلالها عن عجزه ادارك أبعاد الصورة والتعبير عنها كما يشعر، وتردده هذا في التغلغل إلى أعماق الصورة جعله ينتقل من مفاتن الصحراء إلى وصف مفاتن الأجنة والفراديس)(23).

فجاء بصور الجنان التي تشع حسنا مثل الفراديس، والرياض الغناء، وضحك الزهر للجداول، وتهادي النسيم، وهي صور نحسبها بعيدة عن طبيعة الصحراء، أقرب ما تكون إلى طبيعة البيئة البحرية الساحلية،ولعل فتنة الصحراء هي التي جعلت – السائحي– يسلك هذا المسلك (وللصحراء دائما فتنتها فما هي هذه الفتنة التي تجذب إلى الصحراء العدد الكثير من السواح؟إن قسمنا الحيواني ليشعر في هذا الجو الصاحي

الصافي بحياة جديدة،وبقوة جديدة ولكن أرواحنا تمتص من الصحراء سحرا أعظم،لا حد لعظمته)(24).

ولا يفوتنا التوقف عند الشاعر – محمد ناصر – وهو الذي تأثر بالبيئة الصحراوية الجزائرية حتى عنون مجموعته الشعرية بـــ:(أغنيات النخيل) فلنستمع إليه وهو يصف جمالياتها على **بحر الرمل** :

أيـــنَ منِّي **هَـــودجٌ** هَـــزَّته أمْـــواجُ **الصَّحَاري**
فـــتَلوى فَـــوقَها كَاللَّحْـــنِ يسْـــري في وقَـــارِ
وبِـــسَاطُ **الرَّمْـــلِ** يَـــمْـــتدُّ حَريـــرًا في انْحدارِ
تَمْرحُ **الغِـــزْلانُ** في **كُـــثْبانِـــهِ** مثْلُ الـــدَّرارِي
تطْلبُ الأفْـــقَ سِبَاقًـــا فهْي تَجْـــري وهْو جَارِي
فِـــتْـــنَـــةُ العِينِ وتُخْفِي أي كَنْـــزٍ في الْـــقَـــرَارِ
رمْـــلُـــهَـــا يَـــسْبِي وفي أحْشَائِـــها **نُهْرُ نُضَارِ**(25).

هذه هي إذن جماليات الصحراء من منظور الشعراء الجزائريين الذين تأثروا بها،كما تغنى بعضهم تحديدا بجماليات البادية وحياة البدو وكل ما يحيط بها ،مع تفضيلها في غالب الأحيان عن حياة الحضر.

2/ جماليات البادية:

من بين الشعراء الجزائريين الذين تغنوا بجماليات البادية نجد- الأمير عبد القادر الجزائري- الذي تحدث عنها وعن حياة البدو مقارنا بينها وبين حياة الحضر ،على إثر سؤال طرح عليه،(فحينما كان في الأسر بقصر (أمبواز)كان يتلقى رسائل العلماء والأدباء من عرب وفرنسيس.وقد روى في هذا الصدد،أن جدلا طويلا قام بين فئتين من علماء فرنسا للمقارنة بين حياة الحضر وحياة البدو، فمنهم من آثر هذه لأسباب ومنهم من فضل تلك لأسباب أخرى ،واحتكموا إلى الأمير عبد القادر ليدلي بدلوه في الأمر، وهو الرجل الذي عاش تجربة طويلة في الحضر والبادية وخبر مزايا

كل منهما ومساوئها)(26)،وعلى إثر هذه المسألة بعث الأمير عبد القادر برأيه شعرا، واصفا جماليات البادية و حياة البدو ،حيث يقول على بحر البسيط :

يا عَاذِرًا لامْرئٍ قَدْ هَامَ في الْحَضَرِ وعَاذِلاً لِحُبِّ الْبدْوِ والْقَفَرِ

لا تَذْمُـــمَنَّ بيُوتا خَفَّ مَحْمَلُها وتَمْدحنَّ بيوتَ الطِّينِ والْحَجَرِ

لو كُنْتَ تعْلمُ مَا في الْبدْوِ تعْذرُني لكنْ جَهِلْتَ وكَمْ في الْجَهْلِ مِنْ ضَرَرِ(27)

ثم يوغل الأمير بعد هذه المقدمة، في وصف المناظر الطبيعية والحيوانية وكل ما تعلق بحياة البدو، متوقفا عند ترحل الإنسان البدوي:

يَوم الرَّحيلِ وقَدِ شُدَّتْ هَوادِجُنَا شَقَائقٌ عَمَّها مُزْنٌ مِنَ الْمَطَرِ

تَمْشِي الْحُداةُ لَهَا مِنْ خَلْفِهَا زَجَلٌ أشْهَى مِنَ النَّاي والْسَّنطيرِ والْوتَرِ(28)

إلى أن يضيف واصفا جمال ورونق خيام الحي:

نَـــرُوحُ للْحيِّ ليلاً بَـــعْدمَا نَزَلُوا مَنَازلاً مَا بها لَطْخٌ مِنَ الْوَضَـــرِ

نَلْقَى الْخِيامَ وقَدْ صُفَّتْ بهَا فَغَدتْ مِثْلَ السَّمَاءِ زهَتْ بالْأنْجُمِ الدُّرَرِ (29)

هذه إذن هي حياة البادية يعرضها الأمير بكل ما فيها من بساطة وعفوية،فقد وصفها بكل دقة لأنه عايشها وخبر كنهها،فنجده يصف حتى الخيام التي صفت في شكل هندسي بديع وكأنها مثل السماء التي ازدانت بالأنجم الدرر،أليس كل هذا من جماليات البادية؟ فالأمير عبد القادر الجزائري (شبه الخيام – وقد ثبتت بنسق معين في ذلك الموضع من الصحراء المترامية الأطراف بالنجوم الزاهرة التي ازدانت بها السماء وبالرغم من أن تعامل البدوي مع النجوم أكثر من تعامل الحضري وكل منهما يرتبط بها على قدر حاجته إليها ،فإنهما يشتركان في النظرة الجمالية إليها وكل منهما يصدر عن بيئته في تصوير مظاهر جمالها)(30)، ومن كل ما سبق نجد الأمير

عبد القادر الذي تيمته جماليات البادية ينتصر لها في الأخير ، ويفضل حياة البدو على حياة الحضر معبرا عن رأيه بصراحة لا متناهية:

مَا في اْلبَداوةِ مِنْ عيب تُـــذمُّ به ... إ لاّ الـــمَروُءةُ واْلإحْـــسَانُ بالبَدرِ
وصحَّةُ الجِسْمِ فيهاَ غَيرُ خَافِيةٍ ... والعيبُ والدَّاءُ مقصُورٌ على الحَضَرِ(31)

وإلى جانب الأمير عبد القادر ،نجد الشاعر – محمد العيد آل خليفة– والذي بدوره كذلك وصف حياة البدو وجماليات البادية في قصيدته – جمال الريف – قائلا:

حَيَّتْكَ في اْلبَدْوِ كُلُّ اْلكَائنَاتِ بِهِ ... الرِّيحُ عَـــازِفةٌ والرّوضُ صَفَّاقُ
واْلحقْلُ محتَفلُ الأشْجَارِ من طَرَب ... تَشْدُو وتَهْفُو به ورْقٌ وأورَاقُ
والنّهرُ في جَنباتِ السَّفحِ مُنْبسطٌ ... والماءُ في جَنبَـــاتِ النَّهرِ رَقْرَاقُ
وفي اْلكُـــرومِ عنَـــاقيدٌ تحُفُّ بها ... كأنّها في نُحورِ الغيدِ أطْواقُ
وفي الْمَزَارِعِ قِطْعَان مُنوَّعَـــةٌ ... ضَأنٌ ومعْزٌ وأبْقارٌ وأنْيَاقُ(32)

ويسهب الشاعر في وصف جمال الريف إلى أن يكاشف ويجاهر بعشقه لجمال البادية وحياة البدويين، داعيا غيره إلى التزول والمجيء للتمتع بهذا الجمال .

انزلْ إلينا قَـــليلاً نصْطَحبْ زمَنًا ... فكلُّنا لِجمَالِ البَـــدْوِ عُشَّاقُ(33).

ولا يقف الشاعر عند حد المكاشفة بعشقه لحياة البادية فحسب، بل يدعو غيره إلى التخلي عن العيش بالحضر ذلك أن جوها قاتم ومناخها خانق، وينتصر في الأخير لحياة البادية ذلك أن عيش البادية لا نظير له.

حيث يقول:

دَعِ اْلحواضرَ لا يغْرُرْك زخْرفُها ... فجُوُّها قَاتِمٌ كاْلغَازِ خَنَّاقُ
واغشَ اْلبَوادِيَ تنْعم في مَرابعها ... عيشًا ويخطئكَ إعْسارٌ وإمْلاقُ
عيشُ اْلبَوادي نَضيرٌ لا نظيرَ لَهُ ... وجُوُّهَا لعُضَالِ الدَّاءِ تِرْيَاقُ
فَمَا كَأودِيَـــةِ اْلبَادينَ أودِيةٌ ... ولا كآفَاقهم في الأرْضِ آفاقُ(34)

هذه إذن بعض جماليات البادية من منظور بعض الشعراء الجزائريين، وإلى جانب البادية، فقد تغنى البعض بجماليات الواحة.

3/ جماليات الواحة:

إن من يزور البيئة الصحراوية الجزائرية،لعل أول ما يجده في استقباله الواحة،حيث تغمره بظلالها وتسحره بجمالها، وعلى حد تعبير الرحالة الأوروبي- هاينريش فون مالتسان- الذي أبهره منظر الواحة فقال:(غير أن الواحة الجميلة طالعت عيوننا المسحورة بأشجارها الكثيرة الخضراء وحقولها التي تخترقها الجداول الصافية.)(35).

بل يعترف – مالتسان- بقولة (لقد كانت أجمل لحظة في حياتي هي تلك اللحظة التي استقبلتني فيها،بعد دخولي الصحراء الخالدة مباشرة الواحة البديعة وغمرتني بظلالها الكريمة ونجوم الليل تضيئها)(36).

ولعل هذا ما جعل الشاعر – عبد القادر بن عطية – يخصص في ديوانه (آخر الأوراق) قصيدة بأكملها للتغني بجمال الواحة، إذ يقول فيها على بحر الـوافـر:

هيَ الْواحَاتُ نَخْلٌ ذُو ظِلاَلٍ ... ويَنْبُوعٌ تَفَجَّرَ في الرِّمَـالِ
حَبَاهَا اللهُ ذُو الإجْلاَلِ سِحْرًا ... وآيِ نَاطِقَاتٍ بِالْجَـمَالِ
تَمعَّنْ في حَوَايَاهَا تَجِـدْهَا ... حَقَائِقَ مُوغِلاَتٍ في الْخَيالِ
بِهَا الْحَيواتُ تَهْزَأُ بِالْمَـنَايَا ... وَتَهزَأُ مُمْكِنَاتٌ بِالْمُحَالِ
سَلِ الْخَضْراءَ بَاسِقَةَ الطُّلُوعِ ... أَقَابِعَةٌ سِواكِ عَلَى الرِّمَالِ؟
وسَلْ سُفُنًا تُقِيمُ إِذَا أقَمْـنَـا ... وتَرْحَلُ إنْ رغِبْنا في ارْتِحَالِ
أَحَقٌ في سِواءِ البِيدِ يُغْـنِـي ... مُعِينُ الأسْوَدِينِ عَنِ السُّؤَالِ(37).

نلاحظ أن الشاعر يتغنى بجماليات الواحة هنا ولا يفتأ أن يعدد مكوناتها ،فالواحة هي نخل ذو ظلال ،وينبوع تفجر في الرمال ،وهي عبارة عن حقائق

موغلات في الخيال منحها الله سحرا وآيات ناطقة بالجمال،ولا يجد بدا من أن يسأل النخلة ذات الطلع النضيد، وسفن الصحراء عن جمال الواحات الصحراوية.

ولعلنا نلاحظ أن التغني بجماليات الواحة هنا غالبا ما يقترن بجماليات النخيل،وهذا لأن الواحة ما هي إلا مجموع أشجار النخيل ازدانت بجوار بعضها البعض،ولنستمع إلى الشاعر - عثمان لوصيف - حيث يقول:

إذْ نـــَهُــزُّ جَذُوعَ الـــنَّخِيلِ فتهْمي الدَّمُوعْ

رُطَـــبـــًا يـــَتـــَوهَجُ مـــثْـــلَ الشَّـــمُـــوعْ

في لَـــيَـــالي الـــزَّغَـــاريـــدِ أو كُـــاللُّجيـــنْ

آهِ يا وَاحَـــةَ تَـــتَـــرجْرَجُ عَـــبْـــرَ الـــشَّفَقْ

دُمْـــتِ أنْـــتِ فأرْواحُنَا تتناثـــرُ مثلَ الـــورَقْ (38).

فالواحة إذن عند عثمان لوصيف تمثل الملجأ والملاذ والطمأنينة ،كما هي أيضا عند الشاعر – محمد الأخضر سعداوي- فهي مرفأ الذكريات ،حيث يخاطبها بقوله:

إليها أُسَافرْ

وفيها أُسَافرْ

ومنْها إلى كلِّ هذي الدُّنا

إلى هفْهفَاتِ المنى

عشْتُ طائرْ

سلامٌ عَليكِ أيا واحةً فَاتنهْ(39).

فالواحة إذن عند الشاعر سعداوي تمثل محطة هامة في شعره وحياته،فهو دائم السفر إليها بحبه الكبير،ودائم السفر فيها بعشقه المستنير،لينطلق منها إلى كل هذي الدنى غردا بشعره مترنما بأعذب ألحانه.

أما الشاعر – عبد الحليم جراري- فالواحة عنده هي مصدر الجمال والسحر والهيام ،فهو يذوب في عشقها بقوله:

أمَّا الْجمالُ فَفي صَمْتٍ يُسائلُنا عَنْ واحةِ النخْلِ حين الزَّرعُ يغْشَانَا

يا وَاحةَ النَّخْلِ يا سحْرًا يُداعبني إن الْحنيـــنَ إلى الأغْصَـــانِ نَادانَا

يا وَاحةَ البدْو يا عشْقًا يُسائلني أينَ الْحبورُ ؟لماذَا الشِّعْـــرُ جَافَانَا؟

إلى أن يقول:

يا واحة النخل في أعماقِنا اتَّسعي وبلِّغي الحُبَّ للإنْسَانِ مَنْ كَانا(40).

وتأبى جماليات الواحة هنا إلا أن تفضي بنا إلى جماليات النخيل،فكلاهما يؤسس لجماليات المكان بالبيئة الصحراوية .

4/جماليات النخيل:

النخيل ثروة نباتية حبا الله بها الإنسان حتى يؤمن منها مأكله ومشربه،فالنخيل عروس الصحراء وزينتها ،فمنه المأكل والمشرب والظل الظليل ،فهو يغدق دائما بشتى أنواع التمور،ولكل نوع طعمه ومذاقه ولونه،ناهيك عن السعف الذي يصنع منه القِفاف والسلال وغيرهما،وكذلك الحطب،ومشروب الطلع،إلى غير ذلك من المآرب الأخرى،أما من حيث طلعته البهية فهو الجمال الذي يرتسم أمام ناظريك في شموخ وكبرياء ،ونظرا لأهمية النخيل بالنسبة للإنسان فقد تردد ذكره في القرآن الكريم أكثر من مرة،حيث يقول عز وجل (والنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضيد،رِزْقًا للعبادِ وأحْيَيْنا به بلْدةً ميتًا كذالكَ الخُروج).(41).

وكذالك قوله تعالى في ذكر أهمية هذه الثروة النباتية(وجَعلْنا فيها جنَّاتٍ مِنْ نَخيلٍ وأعْنابٍ وفَجَّرْنا فيها مِنَ العُيون، ليأكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وما عَمِلَتْهُ أيديهم أفَلا يَشْكُرونْ)(42).

وعلاوة على ثرواته ومنافعه المختلفة،فالنخيل بشموخه يشعرك بوحدانية الله وتمام خلقه،ويزيدك حكمة وتدبرا،فلا عجب من القول (إن النخيل هو رمز الإنسان

العربي الأصيل الذي لم تدنسه حضارة المدنية و لم يرتو من نبعها السمح،إنها الجذر العربي بتاريخه وحضارته الإسلامية وبمبادئه وأسسه التي يقوم عليها)(**43**).

فهذا الرحالة الأوروبي – هاينريش فون مالتسان – يصفه بقوله (لكن الذي سحر أنظارنا وخلب لبنا وفتنه هو غابة أشجار النخيل الكثيرة التي كانت ترفع رؤوسها ،وقد أضاءت أشعة القمر ،عاليا نحو سماء المساء الزرقاء كانت بنات مملكة النبات الرائعة تهتز هناك وكأنها سرب هوائي من الملائكة نزلت من السماء إلى الأرض وانغرست فيها حبا بالجنس البشري ،ولكن رؤوسها بقيت دائما متجهة نحو السماء في خشوع مقدس ،وكان القمر يصب ضوءه المخيف فوق سعفها البديع،الشبيه بالريش ويرسم ظلالها فوق الصحراء الهادئة اللامتناهية)(**44**).

هذه هي إذن نظرة الآخر إلى جنات النخيل وهي نظرة إكبار وإعجاب، ملكت عليه لبه وجوارحه.

وفي نفس السياق نجد الشاعر أحمد الباتني في حديثه عن جماليات النخيل ،إذ يقول على **بحر الخفيف**:

بَـــسَطَ **الرَّمْلُ** رَاحَتِيهِ وحَيَا ... وحَبَا **النَّخْلُ** طيبهُ الـــقُدُسيَّا

واسْتَوى في الْفَضَاءِ يَرْفَعُ جيدًا ... مُسْتَطيلاً يَضُوعُ مِسْكًا زكيًا

فكَأنَّ **النَّـــخِيلَ** في **البيدِ** بَحْرٌ ... ذُو سِوارٍ يَخُوضُ بَحْرًا حيِيًّا

حَالِقَاتٌ كَـــأنَّ في كُلِّ رأْسٍ ... جُنْحُ **صَقْرٍ** يَجُوبُ أُفْقًا عَلِيًّا

هزَّ في الـــمَـــلْبِ الْكَرِيمِ جَنًى، بَاتَ يـــبُاهي بمَا جَنَاهُ الثُّرَيَّا

حَائِمَاتٌ أسْرا بـــهُ فَوقَ سَاجٍ ... لا شِرَاعٌ بـــهِ لِغوصٍ تَهَيَّا

مُوطنَ الْوحِيِ لا أخَالُكَ إلاّ ... **مَنْبَعَ السِّحْرِ** سَرْمدًا أبَديًّا(**45**)

نلاحظ من خلال هذه الأبيات الشعرية، كيف أن الشاعر– أحمد الباتني – جعل من النخيل محورا لقصيدته واندمج في وصفه اندماجا مطلقا،وقد وفق كل التوفيق في وصفه ،حيث تشع من ثنايا قصيدته صياغة ساحرة وشاعرية دافقة،وقدرة

وتمكن من لغة الشعر، وإحساس عال بالموضوع،وعلى غرار الشاعر – أحمد الباتني- ،فهذا الشاعر – سعد مردف- قد تغنى بجماليات النخلة، إذ يطالعنا في ديوانه (يوميات قلب) بقصيدة عنوانها نخلة الوادي، يصف فيها ما تتميز به هذه النخلة من جمال خلاب وفتنة وسحر حلال، حيث يقول مخاطبا النخلة على **الخبب**:

يَانَخْلَةَ هَذَا ٱلْوَادِي — تِي هِي فَوقَ ٱلأنْجَادِ
شَامِخَةَ ٱلأنْفِ بَعِيدًا — تَـــقِفِينَ عَلى ٱلأوتَادِ
ٱلخُضْرَةُ فـــيكِ دَلِيلٌ — عَنْ كَرَمٍ فِي ٱلأجْدَادِ
وجَمَالُكِ أفْضَى نُورًا — فِـــرْدُوسِيًّا لاَ عَادِي
والْمَاءُ يَسيرُ حَثيثًا — مِنْ حَولَكِ فَوقَ ٱلْوَادِي
والدُّورِي فَوقَكِ يشْدُو — كَالْبُلْبُلِ فِي الإنْشَـــادِ
وجنَاكِ تَمَايلَ تَـــرًا — في عَرْجُونٍ مِـــيَّـــادِ
كَالشَّهْدِ مذَاقُهُ حُلْوٌ — يَسْبِي عينَ الأشْهَادِ(46).

فالشاعر– سعد مردف – هنا عند جماليات نخلة الوادي لذاتها ومن أجل ذاتها بل نجده يجمع عدة صور فيأتي بالخضرة،والماء ، والدوري، ثم يعود فيذكر جمال النخلة،والتمر،و العرجون,والجنى،وما هذا إلا ليمنح القارئ صورة عامة عن نخلة الوادي وطبيعة بيئتها الصحراوية،وإذا كان الشاعر- سعد مردف- قد هام بنخلة الوادي وعشقها حتى الثمالة،فإن الشاعر-عثمان لوصيف-قد هام بنخلة القفر. وهو العنوان الذي أطلقه على قصيدته ،إذ يقول مفتونا بجمالها ومميزاتها على **بحر الخبب** :

ظَمْأى ... مُتَجلدَةٌ
ومَعَ ذَلكَ لا تَذْرِفُ إلاّ رُطَبًا جَنيَا
أو سَمْسَمًا قُزُحيًّا

ثم يضيف :

تِـلْـكَ نَـخْلَةُ الْقَفْرِ
الْمُتَنسِّكَـةُ ... الْـعَاشِقَةْ
رَعْـشَـتُـهُ الأزَلِيَّةُ مَـزِيجٌ
مِـنْ مَـخَاضٍ ونَـشْوةٍ وألَـمٍ وحُلْمٍ ..
طَـلْـعُهَا يَـشْرَأبُّ إلى الْكَواكِبِ السَّيَّارةْ
وسَعَفَاتُـهَا أجْـنِحَةٌ مُسَـرَّةٌ
بينَ أرْضٍ وسَـمَاءْ
فَـلاَ هي تَحُطُّ ..ولاَ هي تَـطِيرْ
إنَّـهَا مَـشْدُودةٌ بألْيافٍ مفْتُولَهْ
إلى جِذْعِهَا الضَّاربِ في أعْمَاقِ الأرْضِ(47).

هذه نخلة القفر عند الشاعر – عثمان لوصيف- فهي ظمأى...متجلدة ،متنسكة،وعاشقة،فلا هي تحط ولا هي تطير،على الرغم من كل هذا فهي لا تذرف إلا رطبا جنيا،أو سمسما قرحيا،ويقول الشاعر في موضع آخر واصفا جماليات النخيل:

النَّخِيلُ هُنَا كَالْعَرَائِسِ في عِيدِها الذَّهبِيْ
والْعَرَاجِينُ مثْلُ الثُّرَيَاتِ أو كَالْحُليْ
والـرِّمَالُ التي خَضَّبَتْهَا الدُّمُوعْ
الرِّمَالُ التي قَـطَّرَتْهَا الشُّمُوعْ
غَاصَت الرُّوحُ في صَهْدِهَا الدَّمَويْ
وتَـهُبُّ النَّسَائِمُ بينَ الـسَّعَفْ
فَالْمَدى تَتَجَاوبُ أصْدَاؤُهُ والنَّدى ينْدَرفْ (48)

للانتباه، إذ نجده تغنى بكثير من المدن الصحراوية مثل : طولقة ، الجلفة، الأغواط ، ورقلة ، بسكرة، بل نجده في هذا الشأن قد أفرد مجموعة شعرية كاملة باسم مدينة غرداية.

فطولقة موطنه، على سبيل المثال مجنونة في عرفه، تعانق الياسمين، وترحل بالعاشقين ،ونخيلها ينسى عراجينه، ورمالها تبكي على الظاعنين ، حيث يقول على بحر السريـــع :

طُـــولَقَةُ تَـــرْحَلُ بِالْـــعَاشِقِينْ
مَـــجْنُونَةٌ ...تُعَانِقُ الْيَاسَمِينْ
نَخِيلُهَـــا يَنْسَى عَرَاجِينَهُ
ورَمْـــلُهَا يَبْكِي عَلى الظَّاعِنِينْ .(53).

أما مدينة — ورقلة — فهي عنده زهرة في الرمال، وقبلة في الخيال،ونخلة وظلال ، وخرز ونضار وينابيع دفاقة وغلال، وعروس مضمخة ومعطرة بالبهاء ، يقول في قصيدته"ورقلة" على المتدارك:

وَرْقَـــلَـــهْ
زَهْرَةٌ فِي الْـــرِّمَالْ
وَرْقَـــلَـــهْ
قُـــبْـــلَةٌ فِي الْخَـــيَالْ
وأَنَا سَائِحٌ قَذَفَتْهُ الْـــفَيَافِي ...
جَبْهَتِي عَنْبَرٌ وغُبَارْ ، ويَدِي حَجَلَهْ

ثم يضيف قائلا :

وَرْقَـــلَهْ
نَخْلَةٌ وظِلاَلْ

بِـــالنَّدَى مُـــثْقَلَهْ
وَيَـــنَابِيعُ دَفَّاقَةٌ وغِلاَلْ
ورْقَلَهْ
خَـــرَزٌ ونُضَارْ (54).

ورقلة إذن بالنسبة للشاعر– عثمان لوصيف- تمثل عالما لا متناهي من الجمال،والصفاء،وهو مذ كان ،سائحا قذفته الفيافي يبحث عن حضن دافئ ينسيه عذابات العمر.

أمامدينة "الأغواط" فهي حوريته، ولؤلؤته، ودليلته، وطبيبته، وواحة العشاق، يختم فيها آخر الأشواط، من بعد تطوافه في مدن العشق، يقول عنها في قصيدته الأغـــواط على **بحر الرجز**:

وفُـــرِشَ الْبِسَاطْ
كَاشَفَنِي الْمُهِيمِنُ الْقُدُّوسْ
رأَيتُ ... مَا رأيتْ
حَمَدْتُـــهُ ...صَلِّيتْ
سَأَلْتُ فِي الْـــجَنَّةِ عَنْ حُورِيتِي
فَكَانَتِ **الأَغْـــوَاطْ**

ثم يردف واصفا سفره إلى هذه المدينة الجميلة،مكاشفا بعشقه،إلى أن يختم قصيدته بمناجاة صوفية عارمة وتبتل وروحانية قائلا :

أَغْوَاطُ ... يَا أَغْوَاطْ
يَا واحَةَ الْعُشَّاقِ
يَا سَلْسَلاً رقْرَاقْ
هَا أَنَذَا أَتُمُّ فِيكِ رحْلَتِي
وهَا أَنَا أَكْمِلُ فِيكِ آيَتِي

أخْتِمُ فِـــيكِ آخِرَ الأشْوَاطْ (55).

أما مدينة"الجلفة" بدورها هي عنده وخزة الحلفاء ،والشيح، وثغاءات الشياه ،وسخاء البدو،وقهوة، ونجوى، وحكايا ،وذات البخورات ،وأريج امرأة وهاجة،وفاكهة العشاق ،إلى غير ذلك من هذه الأوصاف والنعوت التي تكشف جمالها،ها هو يصلي في محرابها ويتعبد بجمال طبيعتها، راصدا ملامحها في قصيدة عنوانها (الجلفة) ،حيث يقول على **بحر الرمل** :

ا .. ل ..ج
بَعْدَهَا لاَمٌ .. وَفَاءٌ ..ثُمَّ تَاءْ
وخْزَةُ الْحَلْفَاءِ والشِّيحِ
سُهُوبٌ و ثُغَاءَاتْ
سَخَاءُ الْبَدْوِ
شَبَّابَةُ رَاعٍ يَزْرَعُ اللَّيلُ مَرَايَا
قَهْوَةٌ ..نَجْوى ..حَكَايَا
وأرِيجُ امْرَأةٍ وهَّاجَةٍ ..
فَاكِهَةُ الْعُشَّاقِ فِي الْجَلْفَةِ جَمْرٌ وشِتَاءْ (56).

ثم يقول عنها مسحورا بجمالها و معلنا تصوفه في هذا المقطع الشعري الرومانسي المؤثر:

آهِ يَا ذاتَ الْبَخُـــورَاتِ،وريحِ الْجِنِّ
يَا مَارِدَةَ الْجَلْفَةْ
رِفْقًا ...وأمَانَا
فَأنَا الصَّبُّ ..أنَا الشَّاعِرُ ..
نَارِي تَفْتَحُ الآفَاقَ .. والْأحْرُفُ تَرْعَفْ
مِنْ حَفِيفِ الـــسَعَفِ الأزْرَقِ

مِنْ رَفْرَفِ **نَخْلٍ** خَلْفهُ يمتدُّ رفْــرَفْ
مِنْ **خَرِيرٍ** يَــحْفُرُ الْأَرْضَ مَرَايَا
و**لَهِيبٍ** يَتَلَهَّفْ
آهٍ هَا جِئتُكِ ..والنِّيرانُ في قَلْبِيَ والأوجَاعُ تَهْتفْ
فَارْحَمِي هَذَا الشَّقيَّ المُتَصَوِّفْ
وامْنَحِيني قُبْلَةً وَاحِدَةً
عَلَّ نَزِيفِي يَتَوقَّفْ (**57**).

نلاحظ كيف أن الشاعر – عثمان لوضيف– لا يوظف المكان بطريقة اجترارية لا حياة فيها،بل يتفاعل معه ويتوحد بمكوناته إلى أقصى الحدود،فهو هنا يوظف جماليات البيئة الصحراوية،حيث يدغدغ أمكنتها بشكل لافت للانتباه،متتبعا جلال روعتها وفتنة طبيعتها،ونحسبه في هذا الجانب علامة بارزة في الشعر الجزائري،حيث (حفل المتن الشعري الجزائري المعاصر بتوظيف متعدد ومتنوع للمكان،تفاوت من شاعرٍ إلى آخر ،ومن مرحلة إلى أخرى ،ولم نشهد تكثيفا متميزا إلا عند الشاعر عثمان لوصيف)(**58**).

وإذا انتقلنا إلى شاعر الثورة الجزائرية – مفدي زكريا – والذي تعددت الأمكنة في شعره وخاصة في الإلياذة،نجده يتحدث عن مدينة بسكرة بوابة الصحراء وعروس الزيبان حيث يقول على **بحر المتقارب** :

وسَاجِلْ **بسَكْرةَ** نَجْوى الْأَصيلِ — وهَمْسَ **الرِّمَالِ** بِأذْنِ **النَّخِيلِ**
تــنَافِحْك مِنْ **طَلْعِهَا** النَّسَمَاتُ — الْعِذَابُ، يُوقِّعْنَ سَجْعَ **الْهَدِيلِ**
ويُــبْهِرْكَ منْهَا انْسِكابُ النَّجُومِ — عَلى وجَنَاتِ **النَّخِيلِ** الْجَمِيلِ
وذُوبَ **الْــعَرَاجِنِ** في صَدْرِهَــا — عَلى لَحْنِ **جَدْوِلها** السَّلْسَبِيلِ
كَــأنَّ **عَسَالِــجَهَا** الْمُثْقَلاتُ — الْحَوامِلَ ، يَنْضَحْنَ **بالزَّنْجَبيلِ**

وبيـــنَ النَّخِيلِ وبينَ الرِّمَـــالِ عَزائمُ تَهْزأُ بالمُسْتحِيلِ (59).

فالشاعر – مفدي زكريا- هنا يحشد كل طاقاته ليورد لنا العديد من الصفات في علاقتها ببعضها البعض والتي تشع منها جماليات مدينة الزيبان بسكرة،فيطالعنا همس الرمال،وطلع النخيل،وسجع الهديل،وانسكاب النجوم على وجنات النخيل،وتدلي العراجين من على صدر النخيل،ولحن الجدول المترقرق المنساب...إلى غير ذلك من الصفات،كما يبرز هنا إيراد الشاعر للعديد من الأفعال المضارعة،وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على دوام حركية المكان وعدم جموده.

وعلى غرار – مفدي زكريا – نجد الشاعر – السعيد المثردي- يتغنى بمدينته – وادي سوف- في ملحمة شعرية مطولة عنونها- إلياذة وادي سوف- حيث يقول فيها على بحر المتقارب:

سَأكْتُبُ تاريخَ واديكِ شِعْـــرَا وإنْ صيغَ ذِكْرُهُ يا سُوفُ نثْرَا
وأرْوي عَنِ السُّمْرِ أمجادَ قومي فينْطقُ وَاديكِ بالشِّعْـــرِ دَهْرَا
هُنَا عمَّرَ الأولُـــونَ بأرْضي وصَاغُوا الْأساطيرَ سَطْرًا فسَطْرَا
هُنَا فاضَلَ الرَّبْـــعُ بينَ الرُّبوعِ وفي ربْعِ سوف اسْتوى واسْتقرَّا
وفي موطنِ الطُّهْرِ عنْدَ الرِّمَالِ تحدِّدُ واديكِ يا سُـــوفُ مِصْرَا
فكُنْتِ الْجزيـــــرةَ عنْدَ الرِّمَالِ وبحـــرُكِ فَاخَرَ في التِّيهِ بَحْرَا
كُنْتِ الأميـــرةَ عنْدَ الْكَثيبِ ومِنْ حولَكِ الرَّمْلُ ينْهَالُ تِبْرَا
تيهِي أيَا وادي سُوفَ الْجَلال فبينَ الْمَدائنِ أمْسيتِ بَدْرَا
وسيرِي أيَا وادي سُوف الدَّلال عطَاءً، يُجَدِّدُ كالماءِ نَهْرَا(60)

فالشاعر – السعيد المثردي- لم ينطلق من جماليات مدينة وادي سوف فحسب ،بل جاوز هذا إلى الفخر بجماليات هذه المدينة وما حققته عبر تاريخها الطويل الشاق،فربع وادي سوف فاضل بين الربوع جميعها،ومدينة وادي سوف ما هي إلا موطن الطهر، وهي الجزيرة عند الرمال،وبحرها الرملي تاه يفاخر جميع

البحور،وهي الأميرة عند الكثيب،تشع جلالا وتختال دلالا،و لم لا وقد أمست بمثابة البدر بين جميع المدائن.

فالشعراء الجزائريون إذن تغنوا بأسماء الأمكنة وجمالياتها،لا سيما الأمكنة الصحراوية ذلك أن الصحراء الجزائرية ساحرة وفاتنة الجمال (الصحراء بخيامها ،وإبلها،بفروسيتها،وكرمها،بالذئاب العاوية،بالغزلان الشاردة،بالحادي وأشعاره الفطرية ،بالقوافل وهوادجها المتمايلة،بالغدران الرقراقة والكثبان المتموجة،بالشمس الدافئة شتاء ،اللافحة صيفا،الصحراء بالجمال الفطري الأخاذ بالمطارحات الغرامية والتقاليد القبلية،بالمروءة العربية نجدة وكرما ،صدقا وإخلاصا،الصحراء الجزائرية لم تزل تحتفظ بهذه الملامح العربية ثابتة،راسخة تلقاك مع أول وقفة على مشارفها ، وتنقلك بأصالة لا يشوبها التكلف إلى طابع عربي صميم ربما لا يصادفك إلا في الكتب)(61).

وخلاصة القول نستنتج أن هذه الطبيعة الساحرة للبيئة الصحراوية الجزائرية وجماليات أماكنها ،وما تتميز به من هدوء وسكينة ،أثارت فضول الكثيرين،سواء من السياح والباحثين الأجانب،أو من الشعراء الجزائريين،فبادلوها الأحاسيس والعشق والهيام،، حيث نجد من الشعراء الجزائريين المعاصرين

– أبناء الصحراء بالذات– من تفرد بكتابة (ملحمة شعرية)بكاملها تتغنى بمسقط رأسه و مراتع صباه وذكرياته،فنذكر مثلا (إلياذة وادي سوف)للشاعر السعيد المثردي، و(إلياذة وادي ريغ) للشاعر صلاح الدين باوية، و(إلياذة وادي ميزاب)للشاعر يوسف لعساكر،و(إلياذة بسكرة)للشاعر عامر شارف،و(ملحمة الزيبان) للشاعر سليم كرام،كلها تتغنى بالبيئة الصحراوية وجماليات المكان .

الهوامش:

(1) غاستون باشلار،جماليات المكان ،ترجمة غالب هلسا،وزارة الثقافة والإعلام،دار الجاحظ،دار الحرية للطباعة، بغداد، 1980، ص39.

(2) سيزا قاسم،القارئ والنص العلامة والدلالة،المجلس الأعلى للثقافة،د.ب،د.ط،2002،ص38.

(3) المرجع نفسه،ص 39 .

(4) المرجع نفسه،ص 37 .

(5) امرؤ القيس بن حجر الكندي،الديوان،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر ،د.ط،1974 ،ص

(6) غاستون باشلار،جماليات المكان،ص76.

(7) امرؤ القيس بن حجر الكندي،الديوان،ص 60 .

(8) ينظر أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني،شرح المعلقات السبع،دار الأفاق الأبيار،الجزائر،د.ط،د.ت،ص 51 ,.

(9) محمد الصالح خرفي ، سيمياء المكان في شعر عثمان لوصيف ،محاضرات الملتقى الوطني الثاني،السيمياء والنص الأدبي/16.15.أفريل2002،منشورات جامعة محمد خيضر بسكرة،طبع دار الهدى عين مليلة،الجزائر،د.ط،ص 281 .

(10)محمد الطمار،تاريخ الأدب الجزائري،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر، د .ط،1981، ص381 .

(11) محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية- 1925 ،1975 ، دار الغرب الإسلامي،بيروت،لبنان، ط.1، 1985 ، ص 455 .

(12) المرجع نفسه،ص 455 .

(13) مفدي زكريا،اللهب المقدس، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،ط.2،1991 ، ص 33 .34 .

(14) محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، ص457 .

(15) المرجع نفسه،ص456 ،457 .

(16) مفدي زكريا،إلياذة الجزائر، موفم للنشر،الجزائر،د.ط ،1995 ،ص34 .

(17) صالح خرفي،أطلس المعجزات،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،ط.2،1982،ص177، ص178.

(18) ينظر محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، ص437 .

(19) ينظر محمد الطمار،تاريخ الأدب الجزائري،ص385 .

(20) محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، ص437 .

(21)محمد الأخضر السائحي،همسات وصرخات،الشركة الوطنية للنشروالتوزيع،الجزائر،ط.2،1981، ص89 .

(22). محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، ص461 .

(23) المرجع نفسه،ص461 .

(24) هاينريش فون مالتسان،ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ترجمة أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،ج3،د.ط،1980،ص249، 250 .

(25) محمد ناصر،أغنيات النخيل،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،د.ط ،1981،ص12،11 .

(26)الأمير عبد القادر الجزائري،الديوان،إعداد زكريا صيام،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،د.ط ، 1988،ص172 .

(27) المصدر نفسه، ص 172 .

(28) المصدر نفسه، ص 174 ،176 .

(29) المصدر نفسه، ص 177 ،178 .

(30) المصدر نفسه، ص 177 .

(31) المصدر نفسه، ص 179 ،180 .

(32) محمد العيد محمد علي خليفة، الديوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 1979، ص56

(33) المصدر نفسه، ص57 .

(34) المصدر نفسه ،ص 57 .

(35) هاينريش فون مالتسان،ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا،ص101 .

(36) المرجع نفسه، ص101 .

(37) عبد القادر بن عطية،آحر الأوراق،مطبعة دار هومة، الجزائر،د.ط،2003 ،ص06 .

(38) عثمان لوصيف،الإرهاصات،دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع،الجزائر،د.ط،1997،ص95، ص 96 .

(39) محمد الأخضر سعداوي، لاشيء أغرب،منشورات السائحي،مطبعة دار النعمان للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط.1، نوفمبر 2007، ص17.

(40) من قصيدة مخطوطة أمدنا بها الشاعر (عبد الحليم جراري)بعنوان- أحضان النخيل- كتبها بوادي سوف يوم:13 مارس 2006.

(41) سورة ق، آية 10،11 .

(42) سورة ياسين،آية 34 ،35 .

(43) ملاس مختار،دلالة الأشياء في الشعر العربي الحديث،عبد الله البردوني نموذجا،إصدارات رابطة إبداع الثقافية.طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية،وحدة الرغاية،الجزائر،د.ط، 2002 ،ص 57 .

(44) هاينريش فون مالتسان،ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا،ص101 .

(45) نقلا عن محمد الطمار،تاريخ الأدب الجزائري،ص381 .

(46) سعد مردف ،يوميات قلب،مطبعة دركي الوادي،الجزائر،د.ط ،2006 ،ص161 .

(47) عثمان لوصيف ،قصائد ظمأى،دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع،الجزائر،د.ط، 1999، ص 10،11، 12 .

(48) عثمان لوصيف، الإرهاصات، ص95 .

(49) صلاح الدين باوية،إلياذة وادي ريغ،منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين،الجزائر،ط.1،2009، ص68 ،69، 70.

(50)مشري بن خليفة،سين،منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين،دار هومة،الجزائر،ط.1،2002،ص39

(51) محمد الصالح خرفي ، سيمياء المكان في شعر عثمان لوصيف،ص 282 .

(52) المرجع نفسه،ص282 .

(53) عثمان لوصيف، اللؤلؤة،د.ط،د.ب،د.ت،ص50 .

(54) المصدر نفسه،ص42 ،43 .

(55) المصدر نفسه،ص65 .

(56) عثمان لوصيف ،أنجديات ،دار هومة ،الجزائر،د.ط،1997 ،ص20 .

(57) المصدر نفسه،ص26 ،27 .

(58) محمد الصالح خرفي ، سيمياء المكان في شعر عثمان لوصيف،ص 282 .

(59) مندي زكريا،إلياذة الجزائر،ص73 .

(60) من قصيدة مطولة بعنوان (إلياذة وادي سوف) أمدنا بها الشاعر السعيد المثردي،وهي من مخطوط ديوان :(بوح الكثبان)

(61) صالح خرفي،الشعر الجزائري الحديث ،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،د.ط،1984 ،ص263 .